البعد الأخلاقي للعمل الأدبي

عبد الرزاق دياربكرلي*

كثيراً ما ينتهي العمل الأدبي قصة كان أم مسرحية أم قصيدة شعرية بنهاية تربوية ذات مضمون أخلاقي،وهذا ما نلمسه في مختلف الأعمال الإسلامية منها وغير الإسلامية على حد سواء، والشواهد على ذلك كثيرة لا يحصيها عد، فالشرطي يدخل في آخر المسرحية ليضع حداً لإجرام المجرم ويلقي عليه القبض، أو تنزل بالظالم مصيبة في آخر العمل الأدبي بأن تنقلب به سيارته، أو يسقط عليه جدار، أو تأتيه رصاصة طائشة تقتله، فترتاح البلاد والعباد منه ومن آثامه وشروره، ويأتي ذلك على أنه نوع من الانتقام المنطقي على أفعاله وتعديه وظلمه، وتلك بلا شك نتيجة يحسن أن ينتهي إليها العمل الأدبي الإنساني بوجه عام حتى يصل المشاهداو القارئ إلى النهاية المنطقية التي يمكن أن يتقبلها العقل الإنساني والعاطفة البشرية، أياً كان هذا الإنسان، وأياً كانت نظرته إلى الحياة والقيم ؛ حيث لابد من انتكاسة الشر، وهزيمته، وانتصار الخير وفوزه، إذ إنه من المعهود الا يبقى الشر منتصراً حتى النهاية .

ومما لا شك فيه أن هذا الأمر لا مشكلة فيه ولا غرابة ولا جدال، ولكن المشكلة تكمن في ملاحظة الجانب الأخلاقي ليس في النهاية فحسب ؛ بل ملاحظته كذلك في أثناء العمل الأدبي ذاته .

ففي كثير من الأعمال الأدبية نجد مسرحية مثلاً تقع في مشاهد أو فصول، ويستمر عرضها لأكثر من ثلاث ساعات، تكون مشتملة على قدر هائل من البذاءات والهبوط، يلوث بها المؤلف الأذواق، ويهبط من خلالها بالمشاعر إلى حد الإسفاف ، ثم تأتي النهاية الأخلاقية في خمس أو عشر دقائق مشتملة على صحوة الضمير وانتصار الفضيلة وإلقاء القبض على المجرم !!! فهل تقوى هذه النهاية التربوية الأخلاقية اليسيرة على غسل ذلك الكم الكثير من السقوط والهبوط الذي تركته المسرحية في نفسية المشاهد أو القارئ وأثرت بها في ذوقه وقيمه وثقافته ومشاعره .

في هذه الناحية فإن الأدب الإسلامي بخاصة، وكل أدب رفيع بعامة، يختلف كل الاختلاف عن سائر الأعمال الأدبية العامة السائدة بين أوساط الناس، إنه يختلف عنها ليس في النهاية التربوية ؛ فذلك أمر مفروغ منه، وهو قاسم مشترك بين الأعمال الأدبية على اختلاف أنواعها، وهو أمر مجمع عليه، إلا أنه يختلف عن غيره من أنواع الأدب في أنه أدب يراعي الجوانب الأخلاقية والأهداف التربوية في كل جوانب العمل الفني بما في ذلك تسلسل الأحداث وتعاقبها، وفي جزئيات العمل الأدبي، وفي طريقة تناولها، بحيث تكون كلها نظيفة في صورها، وفي ألفاظها، وفي نسيجها الفني والإبداعي . ولو اضطر المؤلف في موقف أدبي واقعي معين إلى إيراد شيء من ذلك لتصوير الهبوط والسقوط فيتم عرضه في أضيق الحدود، وبأقل العبارات إثارة للغرائز مع تغليفها بالبعد التربوي في أثناء العرض ذاته .

فالقرآن الكريم عندما يقص علينا قصة سيدنا يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز التي أخذت تراود فتاها عن نفسه يقول جل شأنه: ﴿ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ فإن هذا القول الجليل لم يثر فينا الغرائز والمشاعر الهابطة لكونه موجزاً، ومقتضباً، وداخل سياق أخلاقي، حيث تبعه فوراً قوله تعالى على لسان سيدنا يوسف عليه السلام ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ ثم جاء المشهد الآخر الأشد عنفاً بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ فأعقبه مباشرة قوله تعالى: ﴿ لَوْلاَ أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ .

فكما أن الأديب يراعي الجانب الأخلاقي في نهاية العمل الأدبي فإن مراعاة هذا الجانب مطلوبة منه في أثناء العمل الأدبي أيضاً من البداية حتى النهاية على حد سواء، أما ما تطلبه الضرورة الفنية من مواقف الهبوط أوالإسفاف بهدف تصوير الواقع فإنما يكون موارباً ومغلفاً بما ينفي عنه تهمة القصد إلى الإثارة قصداً، وبما يوظف تلك الإثارة ويجعلها منسجمة مع النسيج العام للعمل الأدبي أياً كان .

---

* كاتب سوري، باحث تربوي وناقد أدبي